محاولات في درس جبران

يسوع الانجيل ويسوع جبران

بقلم امين خالد

١

لقد حاولنا ، في كل ما تقدّم من ابحاثنا عن جبران[1] ، ان لا نتعدى حدود النقد والتحليل وتشريح ادب الفنّان في مؤلفاته تشريحاً علمياً ، كما ادركناه بالنظر الى فحوى تلك المؤلفات ومضمونها ، وباعتبار الاسلوب الكتابي الذي انشأ به جبران . ولم نتعمد التصريح بآرائنا في الكاتب الكبير لنترك لكل ذي فكر عامل ان يستخرج رأيه باستقلال ويلفظ حكمه لنفسه بحريّته ، غير مأسور باستنتاجاتنا ولا مقيّد باستدلالنا .

لم نقل اننا ننبذ « وردة الهاني » ، او نعارض « آمنة العلويّة » ، او نمتهن « مرتا البانيّة » ، او نرفض تعاليم « النبي » ، او نحتقر « سلمى كرامه » ، او نستصعب مجاراة جبران بالعاطفة او الفكر في تلافيف الفاظه الموجزة او المسهبة .

اجل ، لم نتعرض لاصدار احكام كهذه لاننا نعتقدها خارجة عن دائرة النقد التحليلي التي احببنا التشبّث عليها . ولكننا ازاء « يسوع ابن الانسان » لا نستطيع السكوت عن ابداء رأينا .

لقد اراد جبران ان يمزج الفنّ بالدهاء عندما انتهى فكرة تأليف « يسوع ابن الانسان » . فاعتقد انه بترييف شخصيّة صاحب التاريخ العصري العام ، يتسنّى له ان يجتذب الى عنوانه وموضوعه قوماً طربوا بانشائه وذهلوا بشهرته التي لم يدركوا سرّها ، فيشربهم الروح التي دسّها في الكتاب ليختمر في القلوب وقع « يسوعه » الخاصّ ، فتتفشّى اتجاهاته في اعماق نفس القارئ من حيث لا

١) اطلب مشرق السنة الثانية (٣٠ [١٩٣٢] ٤٣٥ ؛ ٥٢٢ ؛ ٦٥٨ ؛ ٧٥٢)

يدري ، فلا يشعر بنفسه الا وهو ضحية فساد العقيدة عندما يعود بالفكر الى التأمل بيسوع النصارى الذي عرفه التاريخ و«يسوع ابن الانسان» كما شوهه جبران.

ان «يسوع ابن الانسان» لا يفرق عن «خليل الكافر» بشيء في الجوهر. الّا ان «خليل الكافر» شاب صريح لا يحسن اخفاء افكاره بل يتزنم بها متهوساً بعزم الشباب. امّا «يسوع ابن الانسان» فقد تبلور الدهاء في احشائه وامسى نصّاً لدين ناعم ، ورداء شفافاً للشهوة المنغصة لانها باتت مصلوبة دون لذتها. فكان التباس بين مظاهرها وبعض جوانب المحبة النزيهة ، وكان اضطراب روحي بداخل النفوس المؤمنة بيسوع الاخاء والمحبة الروحية عندما عادت للتأمل باتجاهات يسوع جبران.

ولكن الناقد الذي يحلّل كل مقالة من السبع والسبعين قصة التي تألف منها «يسوع ابن الانسان» ويركب الشخصية الاجمالية يرى بالنهاية ان يسوع هذا على طرفي نقيض مع يسوع العفة صاحب شريعة الزواج المفرد المقدّس.

ان جبران لم يكتف بتحريف «العهد الجديد»، كما رواه الانجيليون الاربعة ، بل قلبه راساً على عقب ليذرع ميدانه في الاذهان على انقاض مبادئ «المعلّم» الذي عرف بموته على الصليب من اجل خلاص العالم.

وبعيداً عن ابراز تحفة وجد بمسيح الانجيل ، لقد قصد قيادة العواطف الى الهيام باللغز الذي جسّم فيه عاطفته المعروفة ليجعله طعنةً سامّة في صدور اهل الدين الذين حاربهم بكل قواه من اجل «سلمى كرامه». وكأنّ انسان حاله يقول لهم: لقد اضطهدتم شهوتي وقاومتم اتجاهات رغبتي فلأريّنكم ربكم اباحيّاً مثلي. وهاكم «اقواله وافعاله كما اخبرها ودوّنها الذين عرفوه»[1]

يوطّئ جبران لكتابه بايضاحات اوّلية تبهر القارئ وتوقفه مشدوهاً يتأمل بموضوع الحلم الاكبر – حلم الجمال ؛ ويفتكر بسر التضحية العظمى – قضيّة

١) يسوع ابن الانسان : اقواله وافعاله كما اخبرها ودوّنها الذين عرفوه . – وضعه بالانكليزية الفيد الشعر والفنّ المرحوم جبران خليل جبران . تعريب الارشمندريت انطونيوس بشير – ٢٢٣ ص صغيرة ، المطبعة العصرية ، مصر ، ١٩٣٢

اليقظة الروحية – فيروي على لسان يعقوب بن زبدى اهم ما يسترعي الانتباه من اقوال يسوع :

« انظروا الى الارض في ثوبها الاخضر ، وتأملوا كيف طرّزت السواقي اهدابه بالفضة اللامعة .

بالحقيقة ان الارض جميلة ، وكل ما عليها جميل .

ولكن وراء كل ما تنظرون ملكوت ساحكمه واسود فيه . فاذا شئتم ورغبتم من قلوبكم فانتم ايضاً ستذهبون اليه وتحكمون معي .

. . . .

ان مملكتي ليست من هذه الارض ومجدي لم يبنَ على جماجم اسلافكم

فاذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالاجدر بكم ان تتركوني ههنا ، وتتحدروا الى مقابر امواتكم حيث يعقد ذوو الرؤوس المتوّجة منذ القديم مجالسهم في قبورهم ليعطوا مجداً لعظام جدودكم وابائكم . » (١)

فيظنّ القارئ السطحي ان جبران منغرط في سلك الروحيين الزاهدين عندما يتلو هكذا آيات . ولكنه عندما يعود الى نفسه ويفتكر يرى عكس ذلك : الروحي الزاهد يحييه ايمانه بنعمة يوحيها الله الى قلبه لتكفيه مؤونة الحياة الدنيا ، وتدعمه طيلة المدة التي يعيشها منفياً على الارض حتى يصل في الآخرة الى السماء ، او النعيم الابدي ، او جنة الخلد ، او بعبارة ابسط « غاية الغبطة النهائية » . وفي سبيل هذه الغاية السامية يضحي الروحي بزخرف الارض ليقتصر على الروح المجرّدة ، غير مجذوب نحو شيء محسوس ، ولا راغب في نعمة ارضية ، او طيب لذة في اللحم والدم ، بل هو يعتبر التقشف واسطة فعالة لتربية نفسه وتدريبها على خطة انكار الذات والانسلال من المادة الارضية للاحتفاظ بالسر الاكبر – سرّ الايمان – والتوق الى الخفي الصرف الذي سمّيناه « غاية الغبطة النهائية »

فهل رمى جبران الى هذه الغاية عندما كتب « ان مملكتي ليست من هذه الارض . . . فاذا كنتم تنشدون مملكة غير مملكة الروح فالاجدر بكم ان تتركوني ههنا . . . » كلّا ! انه لم يقصد البتة انسلاله من المادة الارضية للوصول الى الروح بل طلب ما يدعوه « روحاً » عن طريق المادة اذ سبق

(١) يسوع ابن الانسان ص ٢-٣

واستهلّ حديثه هكذا : « انظروا الى الارض في ثوبها الاخضر ... بالحقيقة ان الارض جميلة ، وكل ما عليها جميل . » كانه يسعى تحت تأثير الجاذبية البرية نحو « ملكوته » رغبةً منه بالحصول على النعمة المثلى التي يحسبها كامنةً وراء « الجمال العالمي » الذي يشتهي التمتع به لاجل الانتهاء منه الى النطاق الروحي . فهو اذًا بعيد كل البعد عن التجرّد والزهد والروحانية . واذا صحّ قول من قال عن روحانيي العرب انهم سمّوا « صوفيين » لارتدائهم الصوف في سبيل قهر الجسد الترابي واذلاله وخنق الرغبة في الجمال العالمي واخماد الشهوة الدنيئة التي تجعل هذا الجمال غاية نهائية ، فما اجدر روحانية جبران ان تلقب « حريرية » لانه يرى «ملكوته الروحي» على اثر النشوة بالجمال الطبيعي الفتّان والتجاوز بالتمتع الى ما بعد المحسوس . فهو يسعى الى هدفه متبعاً خطة الاغراء الايجابي من الحاصل الى اللامتناهي . ولا نحتاج الى القول بان فضيلة الايمان تتحوّل ، على هذا الوجه ، الى جشع لطيف تجذبه المادة وتجره الى ما يسميه « مملكة الروح » . ولا غرو اذا اثبت جبران في توطئته على لسان « عساف الملقب بخطيب صور » مقدمًا « خطاب يسوع » قائلًا : « اجل ، قد عرف الناصري ينبوع ذاتنا القديمة ، وخبر الخيوط التي حاك القدير نسيجنا منها »[1] بعد ايراده ثلاثة امثلة مختارة من اساليب « يسوع » في بدء قصصه وهي :

« خرج الزارع ليزرع زرعه . . .

« كان لرجل غني كروم عديدة . . .

« راعٍ عدَّ خرافه عند المساء فوجد خروفًا ناقصا . . .

فهو ينسب سحر يسوع وعظمة بلاغته الى ضربه على اوتار الامل والحرص والاحتكار المادي ، ويعتبر هذه الاخلاق « ينبوع ذاتنا القديمة ، والخيوط التي حاك القدير نسيجنا منها » . وبتعليق الاهمية كلها على المقدمات الموافقة لمشربه ، قد تعامى عن المغزى الاخلاقي او الروحي الذي تنتهي اليه الامثال التي كان يسوع يضربها للناس .

ونريد ان نقول مع القائلين بان صوفية جبران تفرق عن الصوفية القديمة

---

١) يسوع ابن الانسان ، ص ١١

لكونها مثقفة . فلعلّ الخيرات ومجموعة النعم تتفق مع الروحية ، او توصل الى روحية معتبرة . ولذلك نريد ان نتعمق في البحث عن ميزات هذه الروحية « الحريريّة » ونتتبع سيرها برفقة ابطال الحديث في الكتاب :

ان البطل الاوّل هو مريم المجدلية . فهي التي تبسط الموضوع وتدلّ على « خلق يسوع » الجبراني ؛ وهي التي تتبسّط فيه في منتصف الكتاب ؛ وهي التي تلفظ آخر كلمة عند النهاية . ولندقق في حديثها عن « اجتماعها بيسوع للمرّة الاولى »[1]

« رايته لاوّل مرة في شهر حزيران . . .

. . . .

ولم اعرف طعم الراحة في فراشي في تلك الليلة . »

لم يكن اقتناع الفكر منيرًا لعقل مريم المجدلية ؛ ولا كانت التوبة عاملة على صقل وجدانها وتطهيره من اقذار الفساد الماضي على اثر ما سمعته او عرفته من تعاليم المصلح العالية ؛ ولا كان الهدى مرشدًا قلبها باعجوبة غريبة ومبدّلا دعارتها بعفة وشقاءها بسعادة .

ولا يشعر القارئ بانه تجاه امرأة منتقلة من حياة الفجور والدعارة الى حالة النعمة الروحية ، بل يلقاها وهي ، كما قال النبي ، « بكمال الفرح ووفرة المسرات » ، في موسم العز والانشراح الطبيعي ، في زمن الربيع ، « شهر حزيران » وفي الحقل : « بين الزروع » ، لا في شوارع اورشليم ؛ وفي مظهر انّيتها « مع جواريّ » ، لا مكبلة بقيود الجريمة وعار الزنى . وفي مثل هذه الظروف المغرية تقول المجدلية : « رأيته لاول مرة » وكانت النظرة الساحرة قد خطفت اوعي من خلد المجدلية فجأة فاثملتها بالدهشة « بحركة جسمه التي لم ترَ مثلها قط في حياتها » وافقدتها خمرة الاعجاب ذكرى مشيته الغير الاعتياديّة و« اذا كان يسير بسرعة او ببطء . » . وفي سبيل الاغراء والتفنن اسقط جبران الحلقة الثانية من سلسلة الحب ، وهي الابتسامة ، وانتقل حالًا الى « التحية » ومنها الى عناء الصد ، الى الانفعال الاكبر ، الى الحلم بالرغبة المكبوتة ، الى الم الجوى . وكلها

---

١) يسوع ابن الانسان ص ١٢-١٧

تتعاقب برموز برقية من الافعال المتواليـة .

« وقفت لحظة ورفعت يدي لاحييه . ولكنه لم يلتفت ، ولم ينظر اليّ . فبغته جدًا . وشعرت بان الدم ينشف في عروقي من شدة الغيظ . وفارقتني حرارة جسدي . . . وكنت ارتجف بكليتي وفي تلك الليلة رأيته في منامي . . . ولم اعرف طعم الراحة في فراشي . »

ولا يلبث عذاب الهجران حتى تنقشع غيمتـه ، فتقول المتيّمة :

ثم رأيته ثانية في شهر آب . . . قلت له « انعم صباحًا »

فقال : « نعمت صباحًا يا مريام » .

اجل يجعل جبران من يسوع رجلًا يرجع فيتردد حول منزل المجدليـة ، ويتربص تحت شباكها مترقبًا الفرص . . . فتبادر الغـانية الى لقاء ساحرهـا الاعظم مجذوبة نحوه ، غير عالمة سرّ اندفاعها العجيب .

نعم تحفّ « بافخر اثوابها الدمشقية المعطرة ، وحذائها الذهبي » الذي اهداه اليها احد عشاقها من قوّاد الرومان . تحفّ المجدلية الى السلام على الدنف العطوف ؛ فيبادلها التحية هذه المرة متحببًا بلا كلفة مغاليًا بتقديسها دون ما تهليـل او تكبير ، بل مكتفيًا بهذه الجملة « نعمت صباحًا يا مريام »

نظرة في الحقل ، تحية ، لقاء فحب بعد تجربة الصد ، « اثواب معطرة وحذاء ذهبي » ، هذا ما حمل يسوع جبران على رفع المجدلية الى سدة الشرف ودعوتها « يا مريام » اي « يا مطهرة ، يا مقدسة » . . . وليقابل المطالع بين هذه المجدلية ومجدلية الانجيل ، وبين هذا اللقاء وذاك ! . . .

وتستأنس الغانية المطهرة بنظرة معنوية ، فتدعو يسوعها الجبراني الى بيتهـا « ليشرب الخمر ويكسر الخبز معها » فيجيبها :

« نعم يا مريام . ولكن ليس الآن »

وتبعث المتكلمة هتافها الحنون : « ليس الآن ، ليس الآن ، هكذا قـال لي . وكان صوت البحر في هاتين الكلمتين ، وصوت الريح والاشجار . وعندما قالها لي تكلمت الحياة مع الموت . »

لم تهتف المتكلمة لكلمة الايجاب « نعم » التي يجب ان تنعشها ، ولم تهتف للفظة السامية المقدسة ، المطهرة ، المتلئة بالتحبب العاري عن الكلفة « يامريام » ؛ ولكن لهاتها رقصت طربًا وفؤادها تدفق حبورًا عند هذه العبارة « ليس الآن » ،

لان بها من عذوبة الوعد وانشراح الامل آية الحياة المندفعة الى الامام ، وفيها من سناء الشرار عربون مغمر بالدفين المستور تحت رماد الظروف الحاضرة ؛ فهذا الشعاع الحميم وذاك الخيط الحريري هما الوتران القلبيان اللذان اثلجا صدر المجدلية وافرحتها موسيقاهما كأن فيها «صوت البحر» و«صوت الريح والاشجار».

ثم يفوه يسوع جبران بخطاب ودّي اقلّ ما فيه انه قائم على التشويق والرغبة في الاستئثار بالحب ، فيكاد لا يسمو في شيء عن خطب العشاق والمغرمين.

نحن لا ننفي ان جبران يصوّر « يسوع ابن انسان » ، ولكننا نستصعب الاعتقاد بان الحب الانساني الكامل قائم على التشويق للغايات الانانية فقط . وهل يوجد في رواية المجدلية شيء لا يحكي عنصراً اساسيًا من عناصر الانانية ؟ !

واذا كان هذا شأن المجدلية في البدء مع يسوع ، او على الاصح شأن يسوع مع المجدلية ، لانها هي الحرية بان تكون بطل الكتاب ، ويسوع بجانبها شخصية ثانوية تخدم عاطفتها ، وفي عاطفتها تجلو المظهر الحسي ؛ فلنلق نظرة على حديثها في قلب الكتاب ونحاول تفهم ذلك الحديث دون ما تأويل عويص او شرح مستبعد استمدّه من غير العبارات الجبرانية ، فنقرأ عنوان تلك المقالة الذي هو نفس الجملة الافتتاحية فيها وهي :

« كان له كتاب الرمانة » (١

واننا لا ندري كيف يتحول معنى هكذا عبارات عما يتبادر الى الذهن من الشهوة . . . ولاسيما عندما ترتدف قائلةً : « بيد انني عندما وقفت امامه وخاطبته ، كان رجلاً ؛ وكان وجهه يملأ عين الناظر اليه قوة . وقد قال لي: « ماذا تريدين يا مريام ؟ . . .

«انني لم اجاوبه ولكن اجنحتي احتضنت سري فسرت الحرارة في جسدي»

وهذا ايضاً تصريح يغني عن كل تفسير يرجع بحديث المتكلمة الى الصوفية او الروحية البعيدة عن رغائب الذات الحيوانية . اشتهاء في نفس المتدلّهة ، وانعطاف ايجابيّ عند السائل « ماذا تريدين يا مريام ؟ » وانشراح حسيّ عند المترنمة

(١) يسوع ابن الانسان ، ص ١١٠-١١١

« فسرت الحرارة في جسدي » . وهكذا نرى ان نشوة الفرح وكمال المسرات قد بلغت في قصة المجدلية غايتها او كادت

بقي علينا الالتفات الى الكلمة النهائية لمريم المجدلية وهي آخر مقالة في الكتاب وعنوانها «بعد ثلاثين سنة »[1] عن بشارتها للرجل الذي احبته واحبها ، واوصلها هذا الحب الى حيث ترى نفسها أرفع رتبة عن الآخرين ، وتتبجح بما وصلت اليه مقتنعةً بذلك كأن لا فرق بينها وبين وردة الهاني التي وقفت على ذروة الشهود يوم فاضت قريحتها بذلك الخطاب المتع[2] . . .

وان حديث المجدليـة لا يفرق عنـه الّا بكونه فلسفيًا موجزًا واكثر رموزًا . ولكن الغايـة لم تتغير والهدف المقصود هو هو . ولنصغ اليها تخطب مشيرةً الى قول « فريق » من الناس ان يسوع « وُلد من عذراء » :

« ولكنكم لا تعرفون الامهات اللواتي يذهبن الى القبر في عذريتهن ، ولا الرجال الذين يذهبون الى قبورهم مختتنين بطشهم . انتم لا تعرفون ان الارض زفت الى الشمس ، وان الارض هي التي تبثنا الى الجبل والى الصحراء . »

وهكذا يقضي جبران ، او يظن انه يقضي ، على اهم العجائب التي تتناقلها التقاليد والتعاليم الدينية ، الا وهي معجزة الحبل بلا دنس ، اذ يعتقد انه جعل كثيرًا من الامهات بتولات مثل والدة يسوع . . .

هذا فضلًا عمّا في عبارته الثانية من النزعة المادّية ، تلك النزعة الظاهرة في كلام كل ابطاله وبطلاته ، كما سنرى في الجزء القادم .

---

١) يسوع ابن الانسان ، ص ٢١٤-٢١٥

٢) الطلب المشرق (٣٠ [١٩٣٢] : ٥٢٨)